

بمحبة انهم اصحاب كرامات وشفعاء عند الله يتوسطون بينه وبين عباده في حاجهم وان كانوا ربما في قبورهم حتى قال بعضهم لا فرق في طلبنا الحاجة من الحي وطلبنا اياها من الميت لان كلا منهما لا فعل له ولا تأثير في الابدان وكلا منهما قد يكون واسطة - الحي واسطة جسدية والميت واسطة روحية - وكسلوم عن الاعمال النافعة والمصالح العمومية باسم الزهد والتسليم للقدر وغير ذلك مما لاسعة في هذه المقالة لشرحه . ولم تقف مضرات جهلهم عند هذه الوسوس الدينية بل استعملوا تفوذهم لخدمة سياسة الاجانب وتمكينها من الاستيلاء على امتهم وانا زروي لك بعض شأنهم في ذلك فاعتبر بما يروى البقية للآتي

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

المعنا في المقالة السابقة ببعض تعاليم الجهلاء من شيوخ الطريق وذكرنا ان منها تطبيق النفوس واناطة الآمال بالشيوخ احياء وأمواتاً، وتطليم الناس الاستماتة بهم على قضاء الحاج ، بحجة انهم اصحاب كرامات وشفعاء يتوسطون بين الله تعالى وبين عباده في درء المفاسد والمضار، وجلب المنافع والمصالح ، ولما كان هذا من الاعتقادات المضرة التي هدمها الاسلام كما المعنا في المقالة المتقدمة ، وكان ما كتبناه سابقاً في منكرات الموالد لم يكف لاقناع جميع الآخذين به لا يجازه واجماله أحيانا أن زريده ايضاحا ليميز الحق من الباطل فنقول :

الذاهبون الى أن من الدين الاستغاثة بمن يعتقد فيهم الولاية احياء وأمواتا والوقوف على الاجداث والقبور لطلب المصالح التي عز طلابها، والحاج

التي جهلت أسبابها ، وأغلقت أبوابها ، ينقسمون الى قسمين عامة وخاصة أما العامة فمنهم من يمتدح صاحب القبر حي في قبره يخرج لقضاء الحاج فيقضيها بنفسه مها كانت ولا يفكر في تدقيق الاشاعة في الفرق بين الجبر والكسب وخلق القمل وحجة هؤلاء على اعتقاد الحكايات التي يتناقضونها عن كرامات صاحب القبر وان هي الا كاذب اخترعتها الخيالات والاهام فاذا مثل هؤلاء عن التأثير وعدمه تحيراً أكثرهم واذا لقنوا آية عقيدة في ذلك ممن يظنون به خيراً أخذوها بالقبول وهؤلاء هم الا كثرون فيما يظهر للمختبر ومنهم من له بعض المأم بما يقول الخاصة وأما الخاصة فيحتجون بالشبهتين اللتين أشرنا اليهما وهما الكرامات والشفاعة واننا نستعين بالله تعالى وحده في بيان فساد الاحتجاج بهما على وجه مختصر مفيد فنقول

أما جواز وقوع الكرامة فلا يقتضي ان من قواعد الاسلام وأحكامه ان يستعين الناس على حوائجهم بمن يجوز ان تصدر منه وذلك لوجوه (١) ان الله تعالى أقام هذا الكون على سنن حكيمة، ونواميس ثابتة، وأمر الناس بالعمل بحسب القوى التي منحهم اياها، كما يعرفون ذلك بالوجدان مراعين سنن الله تعالى ونواميس خلقته ، وأن يمتدحوا أن لا متصرف في الوجود سواه ولا قدرة غيبية الا له وأمرهم أن يخصوه بالاستعانة على مالا يبلغه كسبهم كما يخصونه بالعبادة حيث قال في السبع المثاني التي يثنونها في صلاتهم كل يوم « اياك نعبد و اياك نستعين » نعم أمر الناس بالتعاون في الامور الكسبية بقوله « وتعاونوا على البر والتقوى » والناس في ذلك سواء وفي الحديث الصحيح (اذا سألت فاسأل الله واذا استنت فاستعن بالله) والكتاب والسنة طامخان بأمثال هذه النصوص

(٢) ان ذلك لم يمد في الصدر الاول من سلف الامة الذين يقتدى بهم فلم ينقل ان الصحابة كانوا يأتون قبر النبي صلى الله عليه وسلم ويطلبون منه رد ضوالمهم وشفاء مرضاهم ودفن الجوائح عن زرعهم ونحو ذلك مما يطلبه العوام من الاولياء عند قبورهم في هذه العصور المظلمة وقد جاء في حديث الموطأ وغيره « لا تتخذوا قبوري وثناً » وهو مما اوصى به صلى الله عليه وسلم عند موته بل ما كانوا يعتمدون على الخوارق في زمن حياته وهو زمن المعجزات القطعية لا الخوارق المشكوك بها وانما يعتمدون على عملهم وكسبهم فان اعانهم الله تعالى بخارقة شكرها والاعملوا وصبروا

(٣) صرح الطهلاء بأن الخوارق أمور نادرة مجهول أمرها فلا يبنى عليها

حكم (٤) صرح السبكي وغيره بأن الولي لا يجوز له اظهار الكرامة الا لضرورة وعدوا هذا من الفرق بينها وبين المعجزة الواجب اظهارها وليس من الضرورة حاجة الناس اليها في دنياهم مثلاً وقد التمس السبكي في الطبقات الكبرى أسباباً ضرورية لما نقل عن بعض السلف من الخوارق وقد قال سيدي احمد الرفاعي الكبير قدس سره (ان الولي يستتر من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض) فاذا كان هذا حال الكرامة عندهم فكيف ترخي للعامة العنان في الاعتماد عليها (٥) صرح الشيخ الاكبر قدس سره بان الكرامة لا تتكرر لانها امر خارق للعادة واذا تكررت كانت ممتادة فلا تكون خارقة وظاهر ان ما يطلبه العامة من ذلك يشبه بعضه بعضاً ويزعمون انه وقع مثله من كل ولي يطلبون منه فتكرار الطلاب عبث وغرور (٦) قسم بعض المتأخرين الخارقة الى اقسام من قسماتها انها تظهر على يد كل صنف من اصناف الناس لافرق بين بر وفاجر وتختلف

أسمائها باختلاف من ظهرت على يده فإن ظهرت على يد فاسق أو كافر سميت استدراجا فإذا أضفنا الى هذا عدم التفرقة بين الحي والميت في اعتقاد ان الفعل لله تعالى وان الخارقة سبب لنيل الحاجة فلا بأس بأن يذهب الناس لقبور الفساق والكفار ويطلبوا منها حاجتهم بناء على جواز ان يحصل ذلك لهم استدراجا لامثال الاموات وان شئت فرضت ذلك مع الاحياء من المذكورين (٧) ان الاعتماد على الامر النادر الغير موثوق به كالكرامة كالاعتماد على ما يسمونه فتات الطبيعة أو على الكنوز وهو من الجهل والفرور الذي ينبغي انكاره وعدم تقرير فاعله عليه

وأما طلب قضاء الحاج وتقوم الاعوجاج من الاضرحة والقبور بناء على ان أصحابها شفعا بتوسطون الى الله تعالى فيها فهذا بعيد عن دين الاسلام ومخالف لمقائده وآدابه أيضا لان الذين أثبتوا الشفاعة من المسلمين وهم أهل السنة قالوا انها اكرام من الله تعالى لنبيه أو له ولمن شاء الله من المصطفين في الآخرة لاني الدنيا والشفاعة المتفق عليها عند المسلمين هي التي ترجع الاخبار فيها الى حديث معناه ان لكل نبي دعوة مجابة على سبيل القطع وكل نبي قد دعاها في الدنيا فاستجبت له ونبينا صلى الله عليه وسلم قد ادخرها للشفاعة في الآخرة ولا محل هنا ليراد الخلاف في الشفاعة وما لكل فريق من مثبتها ونافيها من الأدلة القرآنية على ذلك ويكفي فيما نحن فيه انها مختصة بالآخرة وانها لا يقطع بها (ولا في الآخرة) لاحد من هؤلاء الاولياء والصالحين الذين يطلب الناس منهم حاجاتهم المتسرة عليهم ويحملنا محسنو الظن على التأويل لهم بأنهم يمتقدون فيهم الشفاعة والتوسط

بينهم وبين الله تعالى لا الابدان والاعمال والتأثير كأن النكار لا يكون الا على الشرك
المحض والكفر الصريح .

ان عباد الالهة والاصنام والبشر منهم من كان يعبدونها لانهما
شافعة لا لانهما خالقة وموجدة وقد انكر القرآن عليهم بايات منها قوله
تعالى حكاية عنهم في معرض النكار « ما نعبدكم الا ليقربونا الى الله زانين »
الا يقولون « ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتدبؤن الله بما لا يعلم
في السموات ولا في الارض » الآية وهي ترشدنا الى انه لا يجوز لنا ان
نقتات عليه سبحانه بالتخاذ شفعا لم يأذن لنا بالتخاذ واعلامه بما لا يعلم فيما اذالم
يكونوا ممن ارتضاهم للشفاعة . وان فيما تقدم في بحث الكرامة وفي الآيات
والاخبار الكثيرة التي تأمرنا بالالتجاء الى الله وحده لانه اقرب اليامن جبل
الوريد وفي العقيدة المتطوع بها عند جميع فرق المسلمين من ان الله تعالى لم
يجعل واسطة بينه وبين خلقه في الاعدام والابدان وانما جعل الواسطة للتعليم
والارشاد وهم الانبياء (ومن جرى على اثارهم فهو كالنائب عنهم) وقد
انقضت هذه الواسطة بنخاتم الانبياء الذي هو آخر وسيط وفي الحديث
الشريف الذي اشرنا اليه من ان الله تعالى منح كل نبي دعوة واحدة
مستجابة فما يدعو به غيرها موكل لفضل الله تعالى وغيره مقطوع باجابته
وفي الاحاديث الكثيرة التي بينت ان الرخصة في زيارة القبور بعد النهي
عنها انما هي لاجل الاعتبار بالموت وتذكر الآخرة لا لاجل الاقتناع
بالميت ولذلك يزار قبر الكافر والفاسق وفيما ورد في الاحاديث من ان
الميت تحت رحمة الله تعالى كالغريق المتفوث (طالب الفوت) وانه يستحب
الدعاء له وفيما شاهدنا من فساد عقائد العامة باقرارهم على ما يصدر منهم

عند زيارة الصالحين (وهو ما فصلناه سابقاً) الذي انتهى بعضهم الى اعتقاد التأثير لهم والى تسبب السوائب ، كالمجول ونحوها باسمهم كما كان المشركون يسيبونها للاصنام ونهى عنها القران والى المفاضلة بينهم وبين الانبياء والى الحلف بالله باطلا والتعرج والتأثم من الحلف بالولى كاذباً والى ترك الاسباب فى المصالح الكلية اعتماداً على الاولياء كما جرى فى بخارى عند زحف الروسيا عليها حيث أجاب العامة وكثير من الخاصة من أمرهم بالتأهب والاستعداد للمدافعة عن البلاد بقولهم ان شاه نقشبند رضى الله تعالى عنه هو حامي بخارى وهو الذى يرد الاعداء عنها وفيما ورد فى الكتاب والسنة من أن آباء بعض الانبياء وأبناءهم كانوا كفاراً وأبناء كثير من الاولياء كانوا فاسقاً أشقياء ولو كانت الامر فى يدهم فعلاً أو شفاعة لما كانوا كذلك - فى ذلك كاه وفى غيره من الآيات والعبر ما يوجب على العلماء أن يبينوا للناس قولاً وكتابة أن لا يمتقدوا بقدره غيبية الا لله تعالى وان يسيروا فى مصالحهم الدنيوية على السنن والنواميس التى طبع الله الكون عليها ودلتهم المشاهدة على صدق الكتاب فى عدم تبديلها وتحويلها وأن لا يمتدوا على الخوارق الموهومة ولا على الشفاعات التى هى فى الدنيا معدومة وفى الآخرة غير معلومة بمعنى انه لا يعلم لولى بخصوصه شفاعة فى الآخرة على أنهم « لا يشفعون الا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون » وان سيد الشفعاء عليه السلام كان يقول لاهله وعشيرته الاقربين « اعملوا لا اغني عنكم من الله شيئاً » وأمثال هذه الارشادات التى فيها مساعدة الدنيا والآخرة - لا أن نسكت للعوام على منكراتهم المشاهدة هى ومضراتها بناء على حسن

الظن المبني على أمور مشكوك في حصولها وهل مع مشاهدة المنكر مجال
لحسن الظن والقاعدة أن اليقين لا يزول بالشك

نعم ان لزيارة العلماء والصالحين أحياء وأمواتا فائدة معقولة لم يرد
بها الشرع فيما نعلم وهي تأثر الزائر بتذكر ما أوتيته المزور من الفضيلة
والكمال وانفعال روحه بما ينهض الهمة ويبعث على التشبه والاعتداء اذا
كان الزائر ذا بصيرة صافية تمثل لها شمس الكمال فيفيض عليها من
أنوار الهمة والعزيمة ما يبعث على احتذائه ذلك المثال والنسج على ذلك
المنور رطل هذا ما يعنيه السادة الصوفية بقولهم التبرك بالزيارة
واستمداد الهمة من المزور « وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها
الا العالمون »

الشعر العصري

من نظم صاحب الفضيلة استاذنا الشيخ حسين اقدي الجسر الطرابلسي الشهير

بالمجد يبلغ ذو الامال ما طلبا	وبالوفاق ينال المرء ما رغبنا
يا عصبية الملة الفراء أنشدكم	رباً بفضة عليها قد احتجبا
ما السرف في ان اسلافنا ناسلفوا	سادوا البرية فيما أورت العجبا
يا جاهلا قدر عليهم وما اكتسبوا	سل الاناسي أو سل عنهم الكتبا
تخبرك انهم سادوا الانام علا	ودوخوا الكون حتى السبعة الشبا
يجبي اليهم خراج الارض قاطبة	بذاك خاطب هارون المهدي السحبا
هل كان ذلك يغير الجد حاله	حسن الوفاق والا فاذا ذكر واسبنا